

الخطاب الجهادي ودوره في المقاومة الشعبية في الجزائر

مقاومة الشيخ بوعمامة أنموذجا

Jihadist discourse and its role in popular resistance in Algeria

Sheikh Bouamama's resistance is a model

	موسى تريعة
	جامعة غرداية
	tria.moussa@univ-ghardaia.dz

تاريخ الاستلام: 2020/10/22 تاريخ القبول: 2020/10/23 تاريخ النشر: 2020/10/31

المخلص:

تمثل مرحلة نهاية القرن التاسع عشر مرحلة هامة في تاريخ المقاومة الجزائرية ، إذ برزت فيه مقاومة الشيخ بوعمامة والتي تعد من أهم المقاومات بالنظر للظروف التي ظهرت فيها هذه المقاومة ومن جهة أخرى بروز شخصية الشيخ بوعمامة الذي أطلق عليه اسم الأمير عبد القادر الثاني ، كما أن الشيخ بوعمامة أصبح شخصية بارزة بالنظر لسعي فرنسا للتقرب منه لأجل التوسع في الصحراء الجزائرية وبين رغبة المخزن العلوي المغربي لجعله أداة ووسيلة لمواجهة الغزاة الفرنسيين ودافعا عن مصالحهم في المنطقة .وسنسى في هذه الورقة البحثية التطرق إلى مسألة الخطاب الجهادي الذي إعتد عليه الشيخ في مقاومته.

الكلمات المفتاحية :

الخطاب الجهادي ، الشيخ بوعمامة ، الشيخية ، المقاومة ، الصحراء ، الطرق الصوفية

Summary:

The end of the nineteenth century represents an important stage in the history of the Algerian resistance, in which the resistance of Sheikh Bouamama, which is one of the most important resistance, has emerged, given the circumstances in which this resistance appeared, and on the other hand, the emergence of the character of Sheikh Bouamama, who was named Prince Abdelkader II, and Sheikh Bouamama became a prominent figure in view of France's quest to approach him in order to expand the Algerian sahara and the desire of the Moroccan Alawite store to make it a tool and a means to confront the French invaders and defend their interests in the region. In this paper, we will seek to address the issue of jihadist discourse on which the Sheikh has relied on his resistance .

Keywords:

Jihadi Discourse, Sheikh Bouamama, Sheikhiya, Resistance, Desert, Sufi Ways

مقدمة :

لقد كان للشيوخ وزعماء الطرق الصوفية دور بالغ الأهمية في مقاومة الاستعمار الفرنسي ، إذ يسجل التاريخ الكثير من الطرق مواقف شجاعة لرد المظالم والدعوة الى الجهاد ، فشكلت هذه الطرق بفضل زعمائها ومشائها وعاءا مهما ساعد الشعب الجزائري على حماية مقوماتها الحضارية ، فهؤلاء الزعماء حملوا على عاتقهم التنظيم والتنسيق ونشر تعاليمهم وافكارهم ، و يعد الشيخ بوعمامة أحد أبرز زعماء المقاومة الشعبية التي ميزت نهاية القرن التاسع عشر بالجنوب الغربي الجزائري ، وقد تميزت قبيلته بالحياد التام من الصراع الذي ميز الشراقة والغرابة والذي كان أهم أسباب الصراع بين الطرفين رغبة كل طرف في تزعم الزاوية ، ولهذا تعتبر سنة 1881 سنة انبعاث حاول من خلالها الشيخ بوعمامة إيصال نفوذه الى الجنوب الجزائري الاوسط ، فراسل الشعانبة برازقة قبائل وقيادا يطلب منهم الالتحاق به والتعاون معه في سبيل خدمة المسلمين والعمل لخير الناس ، واعطاه معلومات وأخبارا عما يجري في منطقتهم ، ولعله هنا يشير الى مسألة الخلاف الذي وقع بين الشراقة والغرابة في تلك الفترة ، وقد كان لزعماء الطريقة الشيخية ومنهم الشيخ بوعمامة الذي كان له دور مهم في نشر هذه الطريقة ، فقد كان رجلا دينيا و سياسي محنك ومجاهدا صوفيا ، كما عرف بورعه وحبه لوطنه ، فحركته ذاع صياتها في عدة مناطق بفضل خطابه الديني الجهادي ونضاله ضد الاستعمار الفرنسي ، وسنحاول في هذه الورقة البحثية التطرق إلى جانب مهم في استراتيجية الشيخ بوعمامة في التصدي للاستعمار الفرنسي ونقصد به الخطاب الجهادي ودوره في مقاومة الاستعمار الذي أولاه الشيخ بوعمامة أهمية بالغة لإذكاء روح التصدي في نفوس الجزائريين ، فالظروف التي دعت الى حركة الجهاد مسألة تمزق الوحدة والتي اثرت على التضامن والتنسيق بين القبائل وكذا الفراغ السياسي في تلك المرحلة والصراع حول الحكم ، كلها عوامل جعلت الشيخ بوعمامة يعمل بكل الوسائل من اجل استغلال الفرصة لدعوة القبائل وشيوخ الطرق الصوفية من اجل توسيع حركة الجهاد ضد الغزاة وتوسيع القاعدة الشعبية التي تعد النقطة الالهة لمواجهة مخططات العدو .

أولا : ضبط المفاهيم :

يُشير مفهوم الخطاب لدى علماء اللسانيات إلى سلسلة الجُمْل المحكيّة، والمنقولة شفوياً بين طرفين يحاول أحدهما وهو المتحدّث إخبار المُستمع بأحداث ووقائع قد تكون حقيقةً، أو من نسج الخيال بقصد التأثير عليه، فهو الكلام الموجه الى مجموع المستمعين في احدى المناسبات ويتميز هذا الخطاب بكثرة المحسنات اللفظية ويساعد على تحريك الوجدان¹ ، فالخطاب ببساطة هو الوسيلة المحكيّة التي يتم من خلالها تطويع

كلمات اللغة بشكل ممنهج ومُتسلسل باعتبارها وحدةً تأثيريةً، والخطاب جرى تناوله في التراث العربي وخصوصاً في لسان العرب، حيث يقول ابن منظور: "الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان²، وهناك معاني أخرى للخطاب منها ظاهرة فعلية أو قولية أو كتابية لتحديد إيديولوجيا معينة أو لتحديد حالة عقلية في ظرف مهم بالنسبة إلى مجال معين³.

وهناك من يعتبر الخطاب مُجمل ما يصلنا من أفكارٍ أو تصوّراتٍ بكلِّ أشكال التعبير اللغويّ، مسموعاً أو مكتوباً، وكلِّ وسائل التوصيل التقليديّة أو المستحدثة، سواءً كنّا نلقاها جماعةً أو فرادى. وهو بذلك ليس كما يتخيّل البعض من اقتصار معنى "الخطاب" على مجرد الخطابة التي نلقاها في المساجد في صورة خطبة، أو موعظة، أو درس، أو ما شابه ذلك، وقد تعددت وتشعبت مجالات الخطاب فهناك الخطاب السياسي وأيضاً الخطاب الديني والخطاب الجهادي الذي اعتمده زعماء الطرق الصوفية بغرض توجيه الكلام للغير ومفاده الافهام وايصال الفكرة التي تفيد بضرورة مواجهة العدو بشتى الوسائل ، وقد ساهم هذا النوع من الخطاب في اثاره الحماس من طرف الاهالي الذين كانوا يعانون من سياسة التسلط الممارسة ضدهم من طرف قوات الاحتلال الفرنسي خاصة التسلط الاداري والاقتصادي ، فكان هذا الخطاب الجهادي الذي اعتمد عليه الشيخ بوعمامة دور هام في استمرارية المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي .

ثانيا : الشيخ بوعمامة ومقاومته في أسطر:

شيخ بوعمامة هو محمد بن العربي بن الحرمة بن إبراهيم بن التاج بن عبد القادر بن محمد سيد الشيخ القطب بن سليمان بن سعيد بن أبي ليلة بن عيسى بن أبي يحيى بن معمر الملقب أبو العالية بن سليمان بن سعيد بن عقيل بن حفص الملقب حرمة الله بن عساكر بن زيد بن حميد بن عيسى بن التادلي بن محمد الملقب السلي بن عيسى بن زيد بن الطفيل المدعو الزغاوي بن صفوان بن محمد بن عبد الرحمان بن سيدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنه-⁴

ينتهي إلى أولاد سيدي الشيخ الغرابة إسمه محمد بن العربي من مواليد 1840 م ، ولد بقصر الحمام الفوقاني ، وهي قرى تابعة إسميا للمغرب الاقصى ،كانت بدايته في المغرب كون القبيلة ألحقتها معاهدة لالا مغنية بين فرنسا والمغرب سنة 1845 م بالسلطة المغربية .انتقل إلى المقررة بالجزائر التي أسس بها زاوية بعدما اعجب به أهل المنطقة فبقي هناك إلى سنة 1894⁵.

هذه الزاوية التي أسسها بوعمامة سنة 1875 ، أسسها من أجل تأليف القلوب وجمع الشمل بين القبائل ، التي كانت متناحرة مع بعضها البعض ، خاصة بعد قضاء فرنسا على مقاومة أولاد سيدي الشيخ الأولى

فإستغلت فرنسا الوضع من أجل فرض وجودها في ظل هذا التناحر بين القبائل التي كانت في السابق تحت راية واحدة ، فمجيئ الشيخ بوعمامة وما رآه من تناحر وخلافات جعله يوظف كل ما لديه من اجل توحيد هذه القبائل فكان دوره فعالا وتأثيره قويا خاصة لما عرف عنه من سداد في الرأي ونباهة وحنكة في التسيير والقيادة وهذه الصفات جعلته يعرف فيما بعد بالأمير عبد القادر الثاني ،ولعل سياسته مع القبائل المتناحرة آتت أكلها بسرعة خاصة مع أهالي القصور وقبائل حميان والاحرار والرزانية وذوي منيع وأولاد جرير وغيرهم .

وقد عرف الشيخ بوعمامة بحماسه وتدينه ، كما كان من أشد المتأثرين بأفكار جمال الدين الافغاني وكذا حركة السلطان عبد الحميد الثاني ، وخاصة ان دعوتها تسعى الى جمع شتات المسلمين في اطار الخلافة الاسلامية ،كما شجعت الطريقة السنوسية الشيخ بوعمامة في دعوته وثورته ،فلم تستهوه المناصب وسواء اتصل بالشيخ السنوسي واو لم يتصل فانه اتخذه قدوة في نشر الدعوة الاسلامية ومحاربة التنصير⁶ ،وفي بداية القرن العشرين لجأ الشيخ بوعمامة إلى المغرب واشتغل بمشاكل المغرب الداخلية ، إلى أن استقر بمدينة وجدة بعين سيدي ملوك حيث وافته المنية في أكتوبر 1908⁷.

ومن الدوافع التي أدت إلى قيام مقاومة الشيخ بوعمامة بمبالغة السلطات الفرنسية في زرع الفتن والخلافات والشقاكات بين أفراد أسرة أولاد سيدي الشيخ⁸ ، ويمكن الاشارة إلى أن هذه السياسة إنما مردها إلى خوف فرنسا من قيام ثورة أخرى تكون بمثابة الاستمرارية لمقاومة أولاد سيدي الشيخ الاولى ،كما أن المضايقات التي قامت بها فرنسا على السكان مما جعلهم عرضة للفقر والعوز وكثرة المجاعات مما أدى إلى معاناتهم ، خاصة مع ازدياد إهانتهم من طرف السلطات الفرنسية⁹ ، ولعل تدمير قبائل أفلو وقبائل البيض تعد أنموذجا حيا لسياسة التسلط الاداري والاقتصادي وراو بأن لا خلاص من هذه السياسة سوى الوحدة والاتحاد وإعلان الجهاد ضد القوات الفرنسية¹⁰ ،ولقد كان للظروف التي تعيشها الحدود الشرقية مع تونس ، والتي كانت تتمركز فيها القوات الفرنسية من أجل فرض الحماية على تونس عاملا هاما مساعدا للشيخ بوعمامة ، من أجل استغلال الفرصة لإعلان الجهاد في الجهة الغربية للبلاد ضد القوات الفرنسية المشتتة في تلك الفترة¹¹.

وقد مرت مقاومة الشيخ بوعمامة بمرحلتين الأولى بين سنتي 1881-1883 حقق فيها عدة انتصارات على القوات الفرنسية وجيوش القبائل والأعراش المدعومة لفرنسا ، مثل معركة 27 أبريل 1881 ،وكذا هجوم 16 أبريل 1882 والذي تكبدت فيه فرنسا ومن ساندها من العروش والقبائل خسائر كبيرة.¹²

أما المرحلة الثانية والتي كانت مابين 1883-1908 فقد ساد هذه المرحلة نوعا من الاستقرار والهدوء ، إذ ميزها استقرار الشيخ بوعمامة في زاويته التي أسسها قرب الحدود المغربية ، كما إتصل الشيخ بوعمامة بالشيخ

السنوسي في ليبيا والمهدي بالسودان ، ويذكر المؤرخ يحي بوعزيز بأن الشيخ بعث مرار رسالة لفرنسا طالبا العفو في أعوام 1883-1886-1899-1904 ، وخلال استقراره في زاويته كانت الاوضاع في المغرب الشقيق مشتعلة بين المخزن وأبي حمارة الذي كان يطالب بالعرش ، فأيد الشيخ بوعمامة ثورة أبي حمارة¹³، وبعد 28 سنة من الجهاد ضد العدو فضل النفي والاستقرار في المغرب ، بعدما تم القبض على ابنه الطيب من طرف قوات السلطان المغربي وتم اطلاق سراح ابنه سنة 1906 م وتوفي في أكتوبر 1908 م بضواحي وجدة.¹⁴

ثالثا : الخطاب الجهادي وأهميته في مقاومة الشيخ بوعمامة:

اتجه الشيخ بوعمامة إلى اتباع نظام يسعى من خلاله إلى إصلاح أوضاع المنطقة بعيدا عن الفوضى والصراعات الداخلية والاضطرابات التي عمت منطقة الجنوب الغربي ، فقد أصبحت زاويته قبلة تزورها القبائل ، فالسياسة الاستعمارية التي طبقتها الإدارة الفرنسية من مصادرة الاراضي والاستلاء على الممتلكات وفرض الضرائب ضد أهالي منطقة أولاد سيدي الشيخ ، فهذه الاوضاع المزرية التي كان يعيشها أبناء منطقة الجنوب الغربي خاصة والجزائريين عامة ، كلها عوامل وغيرها جعلت الشيخ بوعمامة يدعو إلى إعلان الجهاد ضد الغزاة¹⁵.

فالجهاد يصبح فرض عين على الجميع ولا يتطلب إذنا في حالة مباغته العدو للمسلمين¹⁶. فالشيخ على علم بالحركة الجهادية التي عزم على قيادتها، فأعلم تابعيه وأعوانه أنها المشقة والمآسي وأنها ترك الأولاد والأوطان وأنه لم يجبر أحدا على ذلك، بل كان يخيرهم بين إتباعه أو التخلي عنه، ولكنه وفي الوقت نفسه يطلعهم على أن ما يقوم به، وفي نظره أن الجهاد إحدى شعائر الدين الإسلامي . وقد جاء في إحدى رسائله إلى قبائل الشعامبة سكان الصحراء الجزائرية: ".وبعد نعلمكم أعلمكم الله خيرا، نريد قدومكم، وناقوا(كذا) على أمر الجهاد في سبيل الله، هذا الأمر نادى (به) المنادي..."¹⁷ فقد استطاع بث الحماس في صفوف أتباعه بالجهاد ضد المستعمر ويشير الكاتب الفرنسي أشيل روبير إلى مسألة هامة اتبعتها رجال الطرق الصوفية من أجل تجنيد أتباعهم ضد الاستعمار الفرنسي، أنهم يشكلون جيشا صلبا متديرا بمهارة ومستعدا دائما للدفاع عن البلاد ضد الأوربيين ، إذ كان الواجب الديني يحثهم على رفع راية الجهاد ضد الغزاة .

فهذا الخطاب الجهادي الذي اعتمده الشيخ بوعمامة إنما حمل رايته في سبيل الله ليس إلا، وهذا ما جعله لا يستسلم بحال مهما تكالبت عليه الخطوب وسدت أمامه المنافذ، لأن يقينه في الله كان عظيما، ولأنه إنما قام لتحقيق إحدى الحسينيين، إما النصر أو الاستشهاد. وقد ثبت فعلا أمام جميع الضغوط التي مورست عليه

بجميع ألوانها. ولم يلب ولم يستسلم طيلة سبع وعشرين سنة من المقاومة، إلى أن وافته المنية يوم 10 رمضان 1326 موافق 7 أكتوبر 1908.

ومن أجل إعلاء كلمة الحق وإعلان الجهاد وتوسيعه فقد زار قبائل مختلفة في الجنوب الغربي، ووعدوا بإعلان الجهاد في الوقت المناسب، وأرسل مقامي الطريقة إلى قبائل أخرى،¹⁸ يدعوها إلى الاستعداد للجهاد بتوفير السلاح والذخيرة (تقرير 22 أبريل 1881) معلنا لهم بأنهم سيسمعون عنه قريبا "سلطانا" (بالتعبير الصوفي). وكان السبب المباشر الذي اندلعت على إثره المقاومة هو حادثة محاولة القبض على أحد مقامي وهو الطيب الجرمانى. جاء في تقرير للسلطات الفرنسية مؤرخ في 25-4-1881 أن الزائرين لبوعمامة يزُوحون عُقلاء ويغدون مجانيين.¹⁹ وهو ما يعني رفضهم للحكم الاستعماري، وهذا ما يراه الفرنسيون خروجاً عن الأعراف وعن القانون الذي وضعوه، وهو في نظرهم جنون. ويذكر أحد الضباط الفرنسيين المعاصرين للشيخ أنه "منذ سنة 1878 قام مقدمو بوعمامة بأعمال مشتبه فيها لدى القبائل البدوية جنوبي إقليم وهران، يبشرون بالجهاد ويسجلون الإخوان وينظمون جهودهم من أجل حركة عامة."²⁰ ويقول آخر، معاصر له أيضاً، إن بوعمامة كان يكرر في ظروف متعددة أنه لن يطول الوقت حتى يسمع عنه الكثير، وأن أيام فرحة المسلمين ستعود قريبا، وفي 23 مارس 1880 أعلم قايد الشلالة الظهرانية السلطات العسكرية بأن عددا كبيرا من الزوار من قبائل الطرافي حملت الزيارة لبوعمامة. وأن أفراداً من قبائل دراقة وأولاد سرور وعكزمة، كَوَّنوا، في الأيام السابقة، قافلة تتكون من 60 إلى 70 شخصا، ذهبوا كلهم لمنح الشيخ كمية هامة من المواد، أكثر مما كانوا يدفعونه له عادة. منها تسعة من الإبل تحمل الألبسة والقمح والزبدة والقهوة وألفين من العملة. وكانت القافلة تتضمن أيضا حصانين خاصين للاحتفالات، وتم تسليم كل ذلك للزاوية.²¹

فهذه الزيارات وتلك الوعود، إلى جانب تلك المؤن من أغذية وألبسة، ما هي سوى مقدمات لحركة مستقبلية كانت تُهيئ في الخفاء، علم بها أعوان الاستعمار الذين كانوا يتتبعون عَوْرَات بني وطنهم لرصد كل حركة تتم عن معارضة أو تمرد في مواجهة العدو المستعمر، تلبية لتوجيهات أرباب نعمتهم، وخدمة لمصالحهم مقابل فتات يتسلمونها من هذا العدو.

كما أن استراتيجية الشيخ بوعمامة اعتمدت على تنظيم الدروس والمحاضرات للعامّة من الجزائريين ودعوة القبائل إلى الجهاد ضد القوات الفرنسية، فالشيخ كان يجمع إلى جانب الورع والتقوى موهبة القيادة الحربية والمناورة السياسية، حريص على جمع كلمة المسلمين وخدمة الإسلام عقيدة وعملا. ومن ثمة يمكن اعتبار هذه

الزاوية، (كما يقول عبد الحميد زوزو) نموذجا للدور الإيجابي الذي اضطلعت به بعض الزوايا، والمتمثل في رفضها للاستغلال والاستعمار²².

كما ركز الشيخ بوعمامة في بدايته على ربط الصلة الروحية بالقبائل، فجعل الأفئدة تتعلق بمنهجيته في الطريقة الإيمانية والتي رسمها بطابعه الورع وحياته الجهادية، ولعل العنصر الرئيسي في بصمات الشيخ هي المرتكز الجهادي الثائر على الأوضاع المزرية التي كانت تعيشها المنطقة، وأصبح من المؤكد لديه أن الوازع الديني وحده الكفيل بتغيير ما يسود من مأس، فمن أجل إثارة الهمم وشحن العزائم وجه احد زعماء الطرق الصوفية لرسالة للقبائل يدعوهم فيها الى الجهاد قائلا لهم : بشرى بإعلان الجهاد في سبيل الله على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ضد الكفار الفاسقين الفرنسيين لعنهم الله ، الذين صالوا علينا ، وتعدوا وطمخوا ، وشرعوا في اهانة ديننا الحنيف - لا أراد الله- بعدما فسقوا في ارضنا واحلوا ما حرم الله ، فها نحن رفعنا اللواء المحمدي ، وبشرنا كل مسلم بالجهاد ، راجين من المولى سبحانه وتعالى أن ينصرنا على الكفار المخزنيين.²³

كما أن الظروف التي عانت منها الطريقة الشيخية²⁴ في تلك المرحلة الهامة من تاريخ الطريقة الشيخية فإن الشيخ بوعمامة سعى إلى اعادة مكانة الطريقة الى ما كانت عليه ولهذا نجده دعا إلى التآلف بين أفرادها، وتحاشى دائما الصدام مع بني قومه، وكان يرفض النقائل بين الإخوة المسلمين عامة، ويفضل الانسحاب على مقاتلة أبناء عمومته. رغم محاولاتهم هم جره إلى ذلك. لقد رأوا فيه منافسا لهم في قيادة سكان المنطقة، كما يدل على حسن السياسة وإتباع سبيل الحكمة والموعظة الحسنة، بنبذ العنف وإسالة الدماء، دليله في ذلك تقليد السلف الصالح ، ومما بين سعيه الحثيث الى فرض منطقته وتحسين صورة الطريقة بدأ ينظم دروسه الدينية ليكتسب بها مزيدا من الأنصار ويحرض السكان على اللجوء إلى فاس لمطالبة السلطان المغربي بإرسال قوة كافية لحماية الأهالي وصد الاعتداءات الفرنسية، وقد اعتبرت بعض المصادر الفرنسية أن بوعمامة هو الذي دفع السلطان المغربي الحسن الأول إلى التحرك سياسيا ضد فرنسا، وإلى العمل على تدعيم النفوذ المغربي عسكريا وإداريا بتوات .

كما بعث الشيخ بوعمامة عدة رسائل للقبائل من أجل الجهاد ضد القوات الفرنسية فاجتمع إليه شيوخ القبائل المجاورة للمنطقة، وشرع في مراسلة العديد من الذين اعتقد فيهم المؤازرة والمساندة، وقد أعطت قبيلة الشعانبة خير مثال على ذلك، كما أنه بعث وفوداً إلى أولاد سيد الشيخ الغرابية، ثم أولاد سيد الشيخ الشراقة.

وهذه أسماء بعض الرسل:

-مرزوق السروري: إلى قبائل الطرافي.

-الطيب بن الجرمانى: إلى قبائل الأحرار الشراقة.

-بلقاسم ولد لفران: إلى قبائل أولاد ازياد.

-العربي ولد الطيب أحمد: إلى قبائل الرزينة.

لقد بعث الشيخ بوعمامة عدة رسائل إلى أعيان القبائل وتلا عليهم رسالة الجهاد مع توضيح الأسباب، وهذه الرسالة التي تلاها عليهم:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله: جماعتنا المحروسة بعين الرضا قبيلة بعد قبيلة من غير تخصيص، نعلمكم أعلمكم الله خيرا على أمر الجهاد في سبيل الله بعدما فرق الكفار الفرنساويون بين الأخوة، وفسقوا في أرضنا، واستحلوا حرماننا، أرادكم الله وأعانكم، وللخير والجهاد وفقكم. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

فتوكل الشيخ على المولى عز وجل، وخاض المعارك الطاحنة رفقة أتباعه ومريديه، والسبب المباشر في إعلان الجهاد من طرفه هو هذا الوازع العقائدي، بل أن الجحافل المنضوية تحت راية جهاده والتي تعد بالآلاف ماكان لها أن تكون لولا شدة اقتناعها بأنها تحارب قوات الكفر، وتحمل شعار الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق، وعلى وجه أخص أن الجميع متأكد بأن الزعيم الروحي ليس له من هدف يصيبه إلا الإيمان الراسخ، ثم أنه أثبت للملأ أنه لا يسعى إلى تكوين زعامة سياسية، وإنما كان تركيزه على أن يفهمه الجميع بأنه قائد روحي تائر على الظلم والاضطهاد على شاكلة سليمان بن حمزة وبقية أبناء عمومته، يتزعم مجاهدين أوفياء كما كان يصفهم، يدافعون عن شرفهم ولا يسكتون أمام جبروت الظالم المستبد.

إنه بذلك هو رفاقه يعلنون كلمة الحق تمازجها لحظات النصر ، وفي الوقت ذاته يقيمون حلقات الذكر لقراءة القرآن الكريم حيثما حل بهم الظلام، وفي زاويتهم المتنقلة يستعيدون أورادهم وأدعيتهم الصوفية العميقة، مهللين ومكبرين ومسبحين على طريقتهم الإيمانية.

ويشير عبد الحميد زوز الى تأييد عدة قبائل دعوة الشيخ بوعمامة للجهاد كقبيلة اولاد قطيب - عمور - وشرفاء عيد الصفراء وبعض بطون اولاد سيدي الشيخ الشراقة - البيض -²⁴.

لقد كان للخطاب الجهادي الذي بثه الشيخ بوعمامة في نفوس انصاره محركا هاما لمقاومته ضد الغزاة، اذ غرس فيهم فكرة أن الجهاد ضد الكفار من أعظم القربات الى الله ، وأن الذي يشارك في هذه المقاومة إما يموت ويفوز بالجنة واما نصر تصحبه عزة ورفعة وهمة ، ولهذا كانت مسألة الجهاد ليست بالنسبة لمقاومة

الشيخ بوعمامة وانما بالنسبة لكل المقاومات في الجزائر بمثابة مسألة اساسية وظفها زعماء الطرق الصوفية ، فمارس هؤلاء الانصار الجهاد عن رضى وطيب خاطر .

ويشير سعد الله الى مسألة البعد الجهادي ودوره في المقاومة الشعبية في الجزائر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأكد على دور القيادة في الدعوة الى الجهاد ، اذ كانوا أكثر ايجابية في قيادتهم للجماهير الشعبية ضد الغزاة²⁵ ، فهاته القيادة اغتتمت فرصة مكانتها المرموقة في وسط انصارها فراحت تؤكد على أهمية الجهاد في سبيل الله ، ويذكر هنا احد الضباط الفرنسيين بأن الشيخ بوعمامة نظرا لمكانته وشهرته في المنطقة والتي اكتسبها بفضل نكاهه وحسن بصيرته وكفاءته في القيادة وأسلوبه في الاقناع ، إذ يذكر هذا الضابط بأن : المسلمون كانوا ينظرون إلى الشيخ بوعمامة انه القائد الكبير الذي قاتل ضد المسيح في الجزائر ، الذي قاتل بإسم الله ومحمد صلى الله عليه وسلم ولم يقبل قوانيننا ولم ينحني إلينا ، ضف إلى ذلك بأن هذه السياسة التي اعتمد عليها بوعمامة لم تكن وليدة الصدفة وانما سياسة مخطط لها من أجل جعل انصاره يبتعدون عن السلطة الفرنسية التي كانت توظف كل الوسائل من اجل القطيعة بين الطرق الصوفية و السكان المحليين .²⁶

الخاتمة :

لقد حقق الشيخ بوعمامة انتصارات عديدة على العدو خلال سنوات الجهاد صنعت منه رمزا بطوليا جعل السلطات توافق مكرهه على طلبه، إلا أن الشيخ رفض قبولهم لطلبه الأمان ورمى به جانبا وتوغل في أعماق الصحراء وبالضبط إلى دلدول، ليجدد قواه في الصمت الصوفي المطبق هناك، كما غلب على مقاومة الشيخ بوعمامة الطابع الجهادي والسياسي ، وأعطى للطريقة الشيخية من العناية ما مكنها من ما جعلها تسترد حيويتها ونشاطها واشعاعها ، كما استطاع الشيخ بوعمامة بفضل ورعه وسياسته الحكيمة حتى أطلق عليه الامير عبد القادر الثاني ، فعرف بتأطيره للسكان وجمعهم في صفوف الطريقة الشيخية وحفظ مصالحهم وتوجيههم لمقاومة الغزاة ، بإعتبار ذلك واجبا دينيا و جهادا مقدسا ، فهذا الخطاب الجهادي الذي اعتمده كإستراتيجية إنما لملئ الفراغ الثقافي والروحي والسياسي الذي عم المنطقة خاصة بعد الصراع الذي احتدم بين الشراقة والغرابة حول القيادة والحكم ، وهذا ما أثار انتباه الطرق الصوفية الاخرى والتي ابدت تأييدها فساندته وأيدته في سياسته ومنها الطريقة السنوسية والطيبية والكرزازية .

الهوامش :

1. المنجد في اللغة العربية :ط40 ، دار المشرق ،بيروت ،2003 ، ص67.
2. ابن منظور جمال الدين (دت)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف
3. بغداد محمد :أزمة المؤسسة الفقهية في الجزائر، ذاكرة الأمة. الجزائر، 2012.
4. مياسي ابراهيم :الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934، دار هومة ،للطباعة والنشر الجزائر 2007ص 272.
5. نفسه ص ص 300-301.للمزيد حول مسيرة بوعمامة التاريخية ومقاومته انظر : مبخوت بوداية ، الشيخ بوعمامة الرجل المتصوف والمجاهد ، حولية المؤرخ ، العدد الاول ، الجزائر ، 2002، ص 277.
6. عبد الرحمان دويب : الاعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي ، ط1 ،عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، الجزائر ،2003،ص347
7. حسين صبحي : التنافس الاستعماري الاوربي بالمغرب ،1884-1904،دار المعرف المصرية ، مصر ، 1965،ص172.

8. يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر والعشرون ، ج1 ، طبعة خاصة ، دار البصائر للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2009 ، ص 301
9. ابراهيم مياسي : دور ثورة الشيخ بوعمامة في التصدي للتوسع الاستعماري ، مجلة المصادر ، العدد الاول ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر ، الجزائر ، 1999 ، ص 53 .
10. عبد الحميد زوزو : مقاومة الشيخ بوعمامة 1881-1908 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1983 ، ص 47.
11. E.Groulle: Insurrection de bou-amama avril 1881، Edition، militaire، 1905، paris pp13-14.
12. مياسي ، المرجع السابق ، ص 275
13. يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص 310.
43. عبد القادر خليفي : المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2010 ، ص 185.
15. مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ، العدد افريل 2008 ، ص 356.
16. محمد ابن الطيب البوشيخي : أولاد سيدي الشيخ الشراقة والغرابة التصوف ، والجهاد والسياسة ، الطبعة الثالثة المزينة والمنقحة مطبعة أطلال وجدة ، 2013 ، ص 277.
17. عبد القادر خليفي : المرجع السابق ، ص 92.
18. نفسه ص 95
19. نفسه ص 96
20. نفسه ص 97
21. نفسه ص 97
22. عبد الحميد زوزو : مقاومة الشيخ بوعمامة 1881-1908 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1983 ص 56.
23. الملتقى الوطني الاول حول ثورة أولاد سيدي الشيخ ، أيام 23-24 اكتوبر 1994.
24. الشيخية : تنتسب إلى سيدي الشيخ عبد القادر بوسماحة ، دفين الأبيض سيدي الشيخ والمتوفى عام 1033 هـ 1615م ، مؤسس الطريقة الشيخية ، كان مقدا للطريقة الشاذلية على يد محمد بن عبد

الرحمان السهيلي الذي أخذها بدوره عن أحمد بن يوسف الملياني ، وأوصى سيدي الشيخ عبد القادر بوسمحة أولاده عند وفاته بإتباع تعاليم الشاذلية للمزيد انظر : عبد العزيز شهبي : الزوايا والصوفية والعزبة والاحتلال الفرنسي ، ص 122

25. عبد الحميد زوزو : المرجع السابق ، ص 20.

26. بوعلام بسايح : الثقافة الافريقية طموحات ومتطلبات ، مجلة الثقافة ، العدد 96 ، نوفمبر -ديسمبر 1986.